مجلة أبحاث ميسان ، المجلد الخامس عشر ، العدد التاسع والعشرون ، حزيران سنة 2019
المؤتمر العلمي الدولي الثاني

الأحجار المقدسة وتأليهها

عند العرب قبل الإسلاموتماثلاتها في معتقدات الشرق الأدنى القديم

أ.د . سعد عبود سمار
جامعة واسط/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الخلاصة

يسلط البحث الضوء على المُقدس من الأحجار وتأليهها عند العرب قبل الإسلام، ومحاولة أيجاد متماثلات هذا التقديس في معتقدات الشرق الأدنى القديم وقد تناول: الحديث عن قدسية الحجر الأسود، وقدسية عدد من الجبال في بلاد العرب : أبي قبيس، وثبير، وقزح، وقاف . وتطرق إلى الآلهة التي عُبدت بهيأة حجارة، وأنواع أخرى من الحجارة المقدسة، وهي: الأنصاب، والحجارة الموضوعة على القبور، والحجارة التي تحدد الحمى سواء أكان إلهي أم شخصي.

Conclusion

The study sheds light on the sacred stone and its preaching in the Arabs before Islam, and the attempt to find similarities in the ancient Near Eastern beliefs. He referred to the gods who worshiped with stones and other types of sacred stones: monuments, stones placed on graves, and stones that determine the fever, whether divine or personal.

المُقدِّمة:

قدّس العرب قبل الإسلام أنواعاً من الحجارة، وارتقى بها إلى العبادة، وهذا البحث سيُسلط الضوء على المُقَدَّس من الحجارة وفي مقدمتها الحجر الأسود، فضلاً عن قُدسِيَّة أنواع أُخرَى من الحجارة البيضاء، والحجارة الطويلة.

واستعرض البحث قُدسِيَّة عدد من الجبال، هي: جبل أبي قبيس، وجبل ثبير، وجبل قزح، وجبل قاف الأسطوري، ووضع الروايات ذات البعد الميثولوجي من أجل الارتقاء أكثر بقدسيتها. وتطرق البحث إلى

تمظهر الآلهة بالحجارة فعُبَّدت الحجارة على هيأة حجارة، منها: اللات، والعُزى، وإساف ونائلة، وذي الخَلَصَة، وسعد، وذو شرى، وطنف، والفَلس، وقيس، والجلسد.

وعُني البحث بالحديث عن أنواع من الحجارة اتخذت القُدسِيَّة بأشكال مختلفة، هي الأنصاب التي يذبح عليها الذبائح (قرابين الآلهة)، والحجارة التي توضع على القبور، أو الحجارة التي تحدد بها الأماكن المُحرَّمة سواء أكانت للآلهة أم للأشخاص.

تقديس الحَجَرُ الأسُود

حَظّيت الحجارة بالقُدسِيَّة عِنْدَ العرب قبل الإسلام، وأكثرها قُدسِيَّة هو الحجر الأسود، اعتقاداً منهم أنّه حجر مُقدّس مُنزّل من السَّماء مع آدم بحسب رواية ابن عباس التي جاء فيها:" لّما أهبط الله سبحانه آدم –عليه السلام– إلى الأرض، أهبطه إلى موضع البيت الحرام، وهو مثل الفلك من رعدته, ثُمَّ أنزّل عليه الحجر الأسود – يعني الركن– وهو يتلألأ من شدة بياضه, فأخذه آدم –عليه السلام– فضمه إليه أنسًا"[١] .

ويُعتقد أنَّ الحجر الأسود حينما نزّل من السَّماء استودع عِنْدَ جبل قُبيس، وقد سلّمه ملك السَّماء (جبريل) إلى إسماعيل بحسب ما جاء في أحد الروايات: "حينما كان إبراهيم يبني وينقل له إسماعيل الحجارة على رقبته, فلما ارتفع البنيان قرب له المقام، فكان يقوم عليه ويبني ويحوله إسماعيل في نواحي البيت, حَتَّى انتهى إلى موضع الركن الأسود. قال إبراهيم لإسماعيل: يا إسماعيل, أبغي حجرًا أضعه ههنا يكون للناس علمًا يبتدئون منه الطَّوَاف. فذهب إسماعيل يطلب له حجرًا ورجع وقد جاءه جبريل بالحجر الأسود, وكان الله عزّ وجلّ استودع الركن أبا قُبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح، وقال: إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له. قال: فجاءه إسماعيل فقال له: يا أبت, من أين لك هذا؟ قال: جاءني به جبريل، فلما وضع جبريل الحجر في مكانه وبنى عليه إبراهيم وهو حينئذ يتلألأ تلألؤًا من شدة بياضه، فأضاء نوره شرقًا، وغربًا، ويمنًا، وشامًا، قال: فكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم"[٢].

ووصل تقديس الحجر الأسود إلى أَقصى مُنتهاه حينما وصفته ميثيو الرواية الأَخبَارِيَّة: بأنَّه يد اللَّهِ تعالى في أرضه يُصافح فيها من يشاء من عباده، والحجر الأسود والمقام يأتيان يوم القيامة كُلّ واحد منهُما مثل جبل أبي قُبيس، لهما عينان ولسانان وشفتان يشهدان لكُلّ من وافاهما بالوفاء[٣] .

ويتابع (ابن عباس) حديثه الاخباري عن قُدسِيَّة الحجر الأسود، وكيف تحول لونه من الأبيض إلى الأسود، ومبدأ عبادته وتنزيله من أبي قُبيس ووضعه على الكعبة بقوله: "خرج آدم من الجنة بين الصلاتين صلاة الظهر وصلاة العصر، فأُنزل إلى الأرض، وكان مكثه في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة وهو خمسمائة سنة من يوم كان مقداره اثنتي عشرة ساعة واليوم ألف سنة ممّا يعد أهل الدنيا، فأهبط آدم على جبل بالهند يقال له نوذ، وأهبطت حواء بجدة ، فنزل آدم معه بالحجر الأسود ، وكان أشد بياضاً من الثلج، فلما حج آدم

وضع الحجر الأسود على أبي قُبيس ، فكان يضيء لأهل مكة في ليالي الظلم كما يضيء القمر، فلما كان قبيل الإسلام بأربع سنين وقد كان الحيض والجنب يصعدون إليه ، يمسحونه فأسود ، فأنزلته قُريش من أبي قُبيس" (٤).

وفي رواية أُخرَى لا تختلف عن الأخريات في بنيّة سرّدها الميثولوجي، حينما تجعل مبدأ وضع الحجر الأسود على الكعبة متزامن مع بناء البيت من قبل آدم ، والإيذان في مراسيم الحج المرتبطة مع قُدسِيَّة الحجر الأسود جاء فيها: "إنَّ آدم لّما هبط، كثر بكاؤه، ودام حزنه على مفارقة الجنة، ثُمّ ألهمه الله سبحانه أن قال لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي ، فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه، واجتباه وأنزل له من الجنة التي كان فيها الحجر الأسود، وأمره أن يُصيِّره إلى مكّة، فيبني له بيتا فصار إلى مكة، وبنى البيت، وطاف به ثُمّ أمره الله أن يضحي له فيدعوه ويقدّسه" (٥).

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنَّ البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الَّذِي كان من أهمّ معبودات قُريش، لأنَّه يُمَثِّل بقايا حجر قديم كان مُقدّساً عِنْدَ قدماء الجاهليين، غير أنَّه لم يكن معبود قُريش الوحيد (٦).

ويرى أحد الباحثين أنَّه من الخطأ القول إنَّ العرب كانوا يعبدون الحجارة لذاتها، وإنَّما الحجار هو رمز لمقر الإله، كما أن تطوّر الزمن وسّع من مفهوم البيت، فأضفاه على المكان المغلق المتّسع الَّذِي ينطوي على الحجر المُقَدَّس، وإن الكعبة التي يسمّيها القرآن البيت العتيق وكذلك تسمّيها قُريش، هي البيت لاحتوائها على بيت إيل، الحجر الأسود، فاتسعت قداسة الحجر إلى فضاء الكعبة، إنَّما بقيت مع هذا قداسة الحجر، من دون أية ذاكرة لأصلها ومعناها، لكونه كان أصلاً مقرّ الإله من دون أن يُعرف أي إله (٧).

وثَمَّةَ شواهد تاريخية أُخرَى تعضّد قُدسِيَّة الحجر الأسود من قبل العرب قبل الإسلام إلى الحد الَّذِي فاق بقدسيته الآلهة التي كانت في الكعبة بدلالة ما ذهب إليه (جواد علي) الَّذِي يستند برأيه إلى ما جاء في روايات واردة عن بناء الكعبة قبيل الإسلام معروفة لنا جميعاً قائلاً: إنَّ اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم على شرف وضع (الحجر الأسود) في مكانه أنَّه كان لهذا الحجر أَهَمّيَّة خاصة في نظرهم، وأنَّه كان أقدس شيء عِنْدَهم. وإلا لما اختلفوا هذا الاختلاف على وضعه، حَتَّى ليمكن أن يقال إنّه كان فوق أصنام الكعبة منزلة، بدليل عدم ورود إشارة ما إلى وقوع اختلاف بش أن إعادة صنم من تلك الأصنام إلى مواضعها. ولو كانت الأصنام أقدّس منه، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع. وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميّزة التي ميّزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله. ويدعم رأيه بما ذهب إليه المستشرق (فلهاوزن) إلى أنَّ قُدسِيَّة البيت عِنْدَ أهل الجَاهِلِيّة، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه، بل كانت بسبب هذا الحجر. لقد كان هذا الحجر مُقدّساً في ذاته،

وهو الَّذِي جلب القُدسِيَّة للبيت، فصار البيت نفسه مقدساً في حد ذاته، بحجره هذا الَّذِي هو فيه، ولَعَلَّه شهاب (نيزك)، أو جزء من معبود مُقدّس قديم(٨).

وما الطَّوَاف حول الكعبة في الحج إنَّما هو طَّوَاف حول الحجر الأسود المُقَدَّس، وكذلك الحال في العمرة التي هي زيارة (بيت إيل)، إلى الحجر الأسود مقرّ الإله المبهم ومن ثُمّ البيت الأكبر– الكعبة– الَّذِي يحويه والَّذِي لم يسمّه القرآن بيت الله بل البيت العتيق أو البيت المعمور، كما أنّه لم يذكر الحجر الأسود قطّ بل البيت وهي الكعبة التي أقامها النبي إبراهيم، والطَّوَاف صيغة من الاتحاد مع الإله أو طقساً من طقُوس التطهير للمكان. ويرتبط مع الطَّوَاف حول الحجر الأسود السعيّ بين الجبلين المُقَدَّسيّن الصّفا والمروة وهما صخرتان مُقدّستان في مكان كان وادياً من أودية مكة يحوي أشجاراً، وإن الذبح الَّذِي يُؤذن بنهاية العمرة يقع على المروة فعلاً، وهي مرتفعة قليلاً سواء تُركت اللحوم للجوارح أو أُكلت في مأتم جماعي كما جرى عليه الأمر لدى العرب القدامى، في البتراء مثلاً(٩).

وقد كان لمس الحجر الأسود عِنْدَ عرب قبل الإسلام للتبرك به، وهو مبني في جدار الكعبة، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه. وبين موضع (الحجر الأسود) وباب البيت يكون (الملتزم)، وفي الناحية الشَّماليَّة الغربيَّة (الحجر) أو (الحطيم) (١٠).

ولَعَلَّ من المفيد القول إنَّ الحجر الأسود هو من الحجارة النيزكية التي تُخلّفُها الشهب، وقد اعتقد الأقدمون إنَّها نازلة من السَّماء، اشتهر في الشَّرق ثلاثة من هذه الأحجار السوداء، هي: الحجر الأسود عِنْدَ الأنباط، عُبِد بشكل حجر أسود، وجد مقامه في خربة التنور جنوب شرق البحر الميت ويُرَجّحُ أنّه بُنيَّ في القرن الأول ق.م، والحجر الأسود في مكّة الموضوع في الجزء الشَّرقي للكعبة. والحجر الأسود في حِمص الَّذِي يُمَثَّل الإله بعل حِمص إله الشَّمس الَّذِي عبدوه وسمّيّ إله الجبل أو إيلا جابال أو إيلا كابال، وعُرف الحجر الأسود عِنْدَ الساميين بيتيل ويعني بيت الإله (بيت إيل)، ويعني صنماً أو نصباً من حجر يسكنه الإله ويُرمز له (١١).

المُقَدَّس مِنْ الجِبَالِ

قدَّس العرب قبل الإسلام عدداً من الجبال، وحيكت عن تقديسّها بُنى ميثولوجية، فمن هذه الجبال هو : جبل ثبير ، الَّذِي تَجَلَّت قُدسيّته باقترانه بقصة الذبيح (إسماعيل، وفي رواية أُخرَى إسحاق)، فأُضيف إلى القصة بُعداً ميثولوجياً، ورسخت في الذاكرة الجَمْعِيّة إلى أن وصلتنا برواية عن ابن عباس، قال: "الصخرة التي بـ (منى) التي بأصل ثبير هي الصخرة التي ذُبح عليها إبراهيم عليه السلام فداء ابنه إسحاق، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثعاء فذبحه، قال: وهو الكبش الَّذِي قربه ابن آدم عليه السلام فتقبل منه كان

مخزونا حَتَّى فدى به إسحاق، وفي رواية أُخرَى جاء فيها: لّما فدى الله إسماعيل عليه السلام بالذبح، نظر إبراهيم، فإذا الكبش منهبطا من ثبير على العرق الأبيض الَّذِي يلي باب شعب"[١٢].

وارتبط ثبير بالخلود، حينما أُضيف له بعداً مثيولوجياً آخر باقترانه بـ (لقمان صاحب النسور السبعة) الَّذِي ينشد الحكمة والخلود ، إذ يرد في قصة نسور لقمان أنَّه أخذ أول نسر له من ثبير، وكان قد سمع منادياً لا يُرى شخصه، وهو يقول: يا لقمان المغرور ببقاء النسور، أطلع رأس ثبير ليس بعدو قدرك الغرور[١٣]. وقد اقترنت قُدسِيَّة جبل ثبير بشعائر الحج قبل الإسلام، فكان "أَهْلُ الجَاهِلِيّة يَدْفَعُونَ من عَرَفَةَ قبل أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ وَمِنْ الْمُزْدَلِفَةِ بَعْدَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَيَقُولُونَ أَشْرِقْ ثَبِيرٍ كَيْمَا نُغِيرُ"[١٤].

وليس بغريب أن يكون جبل أبي قُبيس مكاناً مقدساً تؤدى عليه طقُوس الاستسقاء طلباً للماء والخصب، ففي رؤية تُشير إلى صفات مَنْ يقوم بمهمة طلب الاستسقاء على هذا الجبل التي تنطبق على سيد قُريش والشخص المُقَدَّس عِنْدَهم (عبد المُطلِب)، جاء فيها: "أنّه مقرون الحاجبين، أهدب الأشفار، جعدا، سهل الخدين، رقيق العرنين، فليخرج هو وجميع ولده، وليخرج منكم من كُلّ بطن رجل فتطهروا وتطيبوا، ثم استلموا الركن، ثم أرقوا رأس أبي قُبيس، ثم يتقدم هذا الرجل، فيستسقي وتؤمنون فإنكم ستسقون، فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المُطلِب، فاجتمعوا إليه، فتقدم عبد المُطلِب، وقال: هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك واماؤك وبنات إمائك، وقد نزل بنا ما ترى، وتتابعت علينا هذه السنون، فذهبت بالظلف والخف، وأشفت على الأنفس، فأذهب عنّا الجدّب، وائتنا بالحيّا والخِصب، فما برحوا حَتَّى سالت الأودية" [١٥]. وكان لأهل مكّة عادة إذا اجدبوا، رشو على انفسهم الماء وتطيبوا وطافوا بالكعبة، ولبسوا ملابسهم بالمقلوب تيمناً بانقلاب الحل وصعدوا بالبقر جبل (أبي قُبيس) ، تيمناً بمغيب الشَّمس وانعقاد الغيوم وهطول المطر[١٦] .

وربّما تأتي قُدسِيَّة جبل أبي قُبيس؛ لأنّه أول جبل وضع على الأرض، بحسب قصة الخلق برواية عن ابن عباس ذات البعد الميثولوجي: "لّما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض، بعث الله تعالى ريحا هفافة فصفقت الماء، فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة، فدحا الله الأرضين من تحتها، فمادت ثم مادت، فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قُبيس" [١٧].

ويحمل اسم أبي قُبيس دلالة قُدسِيَّة، بدلالة ما تواتر من روايات عن قُدسِيَّة اسمه، ففي رواية قيل، إنّما سميّ أبا قُبيس على اسم رجل أول من نهض البناء فيه كان يقال له أبو قُبيس، فلما صعد فيه بالبناء، سميّ جبل أبي قُبيس. ويقال كان الرجل من إياد، ويقال اقتبس منه الركن فسميّ أبا قُبيس، فضلاً عن أنّه "أول جبل وضعه الله عز وجل على الأرض حين مادت، والأخشب (الجبل) الآخر هو الجبل الأحمر الَّذِي يقال له الأحمر، وكان يسمى في الجَاهِلِيّة الأعرف، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان" [١٨]. وفي روايات أُخرَى عن اسم جبل أبي قُبيس تحمل على الاعتقاد أكثر بقدسيته، جاء فيها: "وفي كنيته بأبي قُبيس

قولان: أحدهما أنّ آدم كناه بذلك حين اقتبس منه النَّار التي بين أيدي النَّاس، والثاني أنّه أضيف إلى رجل من جرهم كان يتعبد فيه، اسمه أبو قُبيس. ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال. وكان من قبل يسمى بالأمين" [١٩]؛ لأنّ الركن، أي الحجر الأسود، كان مستودعاً فيه[٢٠].

وكان جبل أبي قُبيس مستودعاً للحجر المُقَدَّس الَّذِي باعتقادهم أنّه منزل من السَّماء، لذا اكسبته هذه القُدسِيَّة المتناهية، بدلالة رواية ابن عباس التي جاء فيها: وجدت قُريش في أول جاهليتها حجرين على ظهر أبي قُبيس لم يروا أصفى منهما ولا أحسن، أحدهما أصفر، والآخر أبيض، فقالوا: والله ما هذا من حجارة بلادنا ولا ممّا يُعرف من حجارة بلاد غيرنا، ولا نراهما إلا نزلا من السَّماء، فكانا عِنْدَها ثم فقدوا الأصفر، وكانوا يدعونه الصغير، وأمسكوا الأبيض واحتفظوا به حَتَّى بنوا الكعبة فجعلوه فيها فهو هذا الركن الأسود" [٢١]. والظاهر أنَّ بيتاً للعبادة كان عليه، و أنه كانت له صلة بالبيت، فتجسمت هذه الصلة في الذي ذكروه عن الحجر الأسود ووجوده فيه[٢٢].

والظاهر أنَّ بيتاً للعبادة كان عليه، و أنَّه كانت له صلة بالبيت، فتجسَّمت هذه الصلة في الَّذِي ذكروه عن الحجر الأسود ووجوده فيه[٢٣].

وصفوة القول في قُدسِيَّة جبل أبي قُبيس، إذ كان الأمين الَّذِي استُودع فيه الركن (الحجر الأسود)، لحين الشروع ببناء الكعبة، وعُدّ من المواضع المُقَدَّسة التي تؤدى فيه قسماً من طقُوس الحج الجاهلي، إذ يتمون فيه طقُوس حجهم، وكان المكان المُقَدَّس الَّذِي تُستجاب دعواهم بالاستغاثة لنزول المطر.

وتضيف الروايات الأَخبَارِيَّة شواهد عن قُدسِيَّة الحجارة على الرَّغْم من بعدها الميثيولوجي إلا أنّها تعطي انطباعاً عن العقلية العَرَبِيَّة قبل الإسلام في كيفية النظر إلى المُقَدَّس، وهذا ما تطلعنا به أحدى الروايات بالقول: "إنّ الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، نزلا فوضعا على الصفا، فأضاء نورهما لأهل الأرض ما بين المشرق والمغرب كما يُضيء المصباح في الليل المظلم، يؤنس الروعة ويستأنس إليه، وليبعثن الركن والمقام وهما في العظم مثل أبي قُبيس يشهدان لمن وافاهما بالوفاء، فرفع الله تعالى النور عنهما وغير حسنهما، فوضعهما حيث هما"[٢٤].

وتمدنا الروايات الأسطوريَّة عن معتقد الجنس المُقَدَّس عِنْدَ العرب قبل الإسلام، وتمظهر الإنسان في الجبل، وحمل اسماء العاشقين الَّذِين اضحوا قرابين حبهم، فحملت الجبال ذكراهم، فيروى: "أنَّ هنالك ثلاثة أجبل: أجأ وسلمى والعوجاء، وذلك أنَّ أجأ اسم رجل تعشق سلمى وجمعتهما العوجاء، فهرب أجأ بسلمى وذهبت معهما العوجاء، فتبعهم بعل سلمى فأدركهم، وقتلهم، وصلب أجأ على أحد الأجبُل فسميّ أجأ، وصلب سلمى على الجبل الآخر فسميّ بها، وصلب العوجاء على الثالث فسميّ بِاسْمِها"[٢٥].

وترجع قُدسِيَّة المواضع المُقَدَّسة وحرمتُها إلى الاعتقاد بنزول الآلهة في هذه المواضع، وإلى وجود قوى خارقة فيها، أو إلى وجود مقدّسيّن فيها قُبروا في باطنها، فقُدّست تلك المواضع لهذه الأسباب. وتعرف هذه المواضع المُقَدَّسة بِأسماء من تقدّست بهم، وبِأسماء المواضع التي تقع فيها[٢٦].

ويُحظى جبل قُزح بالقُدسِيَّة أيضاً، فيدخل في طقُوس الحج الجاهلي، إذ "تقف عليه الحِلة والحُمس، فلا يزالون عليه حَتَّى إذا طلعت الشَّمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، دفعوا من مزدلفة، وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير، أي أشرق بالشَّمس حَتَّى ندفع من المزدلفة" [٢٧]. وعُدّ قُزح إلهاً يُمثِّل الجبال والبرق والرعد والمطر، وكان العرب يحافظون على عبادته قرب مكة. فهو يقابل (حدد) إله المطر عِنْدَ السوريين، والرَّاجِح أنَّ هذا الإله آدومي وانتشرت عبادته في أنحاء جزيرة العرب [٢٨]. وورد اسم الإله قُزح في نصوص المسند، بصفته الإله المسؤول عن السحاب، وذُكر أنّ قُزح اً هو: اسم ملكٍ مُكَّل بالسَّحاب[٢٩]. وهناك من يرى أنَّ عمليَّة نحر الهدي أي الهديَّة التي يتمّ بها الحج، هي شكر للإلهة الشَّمس مُسْبَقاً على تلبية دعوتهم في الإمطار، أو يتظاهرون أنّ دعوتهم لُبّيَت بعدُ، وكأنّ المطر نزل وتدفق وصار الحجيج ـ سحرياً ـ هم السيل المُندفع في مرحلة أولى من عرفة وفي مرحلة ثانية من مزدلفة. وإذ صحّ هذا، فهو يعني شكراً خيالياً للشَّمس إذ ضعفت في عرفات قبل الغروب وهذا المطلوب منها، كأنّ المطلب سلبي، والشكر الخيالي يتجه إلى قُزَح، إله البرق والرعد والأمطار، فقد لَبَّى بالإمطار إيجابياً [٣٠]. وثَمَّةَ إفاضة في الحج نحو مِنى بعد طلوع الشَّمس، وبعد إمضاء ليلة في سهرة دينيَّة عِنْدَ الإله / الجبل قُزَح الَّذِي سيغدو المشعر الحرام حيث كانت تُشعل النيران[٣١].

وحيكت الأساطير عن جبل وهمي في بلاد العرب هو جبل قاف الَّذِي حَظّي بالتقديس أيضاً، و عُدّ أصل كُلّ جبال الدنيا من قولهم "قاف أثره يقوفه قوفا إذا اتبع أثره فيكون هذا الجبل يقوف أثر الأرض فيستدير حولها، وقاف مذكور في القرآن ذهب المفسرون إلى أنَّه الجبل المحيط بالأرض، قالوا: وهو من زبرجدة خضراء وإنَّ خضرة السَّماء من خضرته، قالوا: وأصله من الخضرة التي فوقه، وإنَّ جبل قاف عرق منها، قالوا: وأصول الجبال كُلّها من عرق جبل قاف، ذكر بعضهم أنَّ بينه وبين السَّماء مقدار قامة رجل، وقيل بل السَّماء مطبقة عليه، وزعم بعضهم أنَّ وراءه عوالم وخلائق لا يعلمها إلا الله تعالى، ومنهم من زعم أن ما وراءه معدود من الآخرة ومن حكمها وأنَّ الشَّمس تغرب فيه وتطلع منه وهو الستار لها عن الأرض"[٣٢].

ولقُدسِيَّة جبل قاف نقل المفسرون حواراً ميثولوجياً بينه وبين (ذو القرنين) برواية لـ (وهب بن منبه) استعرض فيها طبيعة هذا الجبل وعظمته، وبعدها ذكر الحوار الَّذِي جاء فيها: "أنَّه (أي ذو القرنين) لّما انتهى إلى مغرب الشَّمس، ترك من معه هناك وسار على الماء في الظلمة ثمانية أيام وثماني ليال حَتَّى انتهى إلى جبل قاف، وإذا هو بملك قابض على الجبل يسبح الله تعالى؛ فخر ذو القرنين ساجداً لله تعالى، فلم يرفع رأسه

حَتَّى قواه الله تعالى على النظر إلى الملك. فقال له: كيف قويت يا بن آدم على أن تبلغ هذا الموضع ولم يبلغه أحد من ولد آدم قبلك؟ قال: قواني الله الَّذِي قواك على قبض هذا الجبل. فأخبرني عن هذا الجبل. قال: إنَّه قاف المحيط بالأرض كُلّها، ولولا هو لانكفأت الأرض بأهلها، وليس على ظهر الأرض أعظم منه، وإنَّه لمحيط بها كالحلقة، وهو أول جبل أثبته الله، فرأسه ملصق بسماء الدنيا، وأسفله راسخ في الأرض السُّفلىٰ"[٣٣] .

وقدّس أهل العَرَبِيَّة الجنوبية، وأهل السراة قمم الجبال، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة، مثل معبد (أوم) (أوّام) في (الو). وقد أُزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام، ولكن بعضها أخذ طابعاً إسلامياً فَصَيَّرَ مَثَلاً قَبراً من قبور الأنبياء مثل: (حضور نبي شعيب)، الَّذِي يقع على قمة جبل تُعدّ من أعلا قمم جبال العَرَبِيَّة الجنوبية، و(نبي أيوب) و(مقلى) على محر (مبلقة) [٣٤].

ويُعدّ جبل غنيم من الأماكن المُقَدَّسة لدى الـتيمائيين الَّذِين كانوا جزءاً من دولة الانباط، ووجدت على قمته العديد من المخربشات المكرسة إلى إلههم الأكبر (صلم) تدعوه أن ينصرهم على أعدائهم ، وعُثِرَ كذلك على آثار أبنية يُعتقد أنَّها بقايا معبد [٣٥].

وقَدّس أهل اليمن ريام وهو اسم لجبل بُنيّ على قمته بيت (معبد) للإله تألب، ويُؤَكّد ذلك أنَّ الكلمة مشتقة من الجذر الثلاثي (رام) في اللغات السامية الَّذِي يعني العالي المقام أو الرفيع والنبيل. ومن ثمَّ فإنَّ الاسم يدل على المكان الَّذِي بُنيّ به المعبد على قمة ذلك الجبل، ثم انتقل الاسم من الجبل إلى المعبد، وبذلك اتخذت منطقة جبل ريام مركزاً دينياً رئيساً لعبادة (تالب ريام)، وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ جبل ريام كان من المناطق الدِّينيَّة المُقَدَّسة[٣٦].

ويعتقد أنّ جبل إثلب في منطقة الحجر كان من الجبال المُقَدَّسة نظراً لما حواه من أحجار مقدسة وآثار دينيَّة كالنصب التي تسمح للمتعبدين بالدوران حولها، والمحاريب الأُخرَى جنوب الجبل [٣٧]. وهناك معبد الديوان في الحجر وهو المحفور بجبل إثلب، ولا نعرف أن كانت قُدسِيَّة الجبل من وجود هذا المعبد به أم أنَّ المعبد نُحت به لقُدسيّته، وقد عُثِرَ بداخله على محاريب آلهة عديدة منها محراب الإله اعرا[٣٨].

ويتماثل معتقد تقديس عدد من الجبال مع معتقد تقديس الجبال في مثيو معتقدات الشرق الأدنى القديم ، ففي ادب العراق القديم ثمة أسطورة سومرية تُعرف بـ (الماشية والغلة) يرد في مطلعها تقديس الجبل، إذ جاء فيها :

على جبل السماء والأرض
ولد آن (الإله آنو) زملاءه (الانوناكي)

وليس بعيداً عن المعقول أنَّ السومريين قد تصوروا السماء والأرض المتحدتين على هيأة جبل قاعدته في أسفل الأرض وقمته في أعلى السماء [٣٩]. ويُفهم من نص الأسطورة، أنَّ الإله آنو خل الآلهة على قمة جبل السماء على وفق التصور السومري.

وتتجلى قُدسيَّة العراقيين القدماء للجبل المُقدّس (دوكو)، إذ يأتي في النص الأسطوري في الأسطورة نفسها (الماشية والغلة) ما نصه:

في بيتهم الخاص (دوكو) خلق لاخار (إله الماشية) واشان (إله الحبوب) [٤٠].

وتضيف النصوص الأسطورية بما يُعضد مُعتقد قُدسية الجبل في المعتقدات الرافدينية، إذ يرد نصاً في ملحمة كلكامش يُشير إلى هذا المعتقد جاء فيه:

كانت الطرقات مستقيمة ، والرحلة طيبة
رأوا (جلجامش وانكيدو) جبل الأرز، مقام الآلهة وعرش الإلهة إرنيني
ووجه الجبل نفسه وشجر الأرز رمز خصبه
منعشة برودته، منعشات [٤١].

وفي معتقد العراقيين القدماء أنّ الجبال خُلقت من أجزاء من جسم الإلهة (تيامة)، إذ خُلقت من ضرعيها بدلالة النص:

كوّن من ضرعيها (تيامة) المرتفعات الجبلية
ثقب المنابع لتغذية الأحواض[٤٢].

واقترن الجبل بالآلهة، وذلك حينما يأتي وصف الإله إنليل (إله الهواء) في نص أسطوري بالجبل :

هو الجبل العظيم
الأب إنليل[٤٣].

وفي أسطورة (إنكي وننخرساك) يقترن الجبل بأحد الإلهات هي (ننكرا) :

"**وعندما رأى الإله إنكي ننسار على ضفة النهر ضاجعها،**
فأنجبت بنتاً هي ننكرا (سيدة الجبل)" [٤٤].

ويُعدُّ جبل (أيبخ) من الجبال المُقدَّسة الذي اقترن اسمه بالإله آشور في النصوص المسماريّة، إذ يرد في كتابات الحاكم الآشوري إيلوشوما (1962– 1942 ق.م) ما نصه:

"**لقد فتح لي الإله آشور نبعيّ ماء في جبل أيبخ، فهيأت اللبن للأسوار بماء هذين النبعين**" [٤٥].

وتتجلَّى قدسية الجبل في التوراة، فهناك جبل حوريب (جبل الله)، الذي تجلى عليه لقاء النبي موسى بربه، واعطاه الوصايا العشر[٤٦]. وجبل سعير الذي ورد ذكره في التثنية الإصحاح الثاني (1–7): " **إنَّ بني إسرائيل داروا حول جبل سعير لعدّة أيام ثم توقفوا**".

وارتبط الإله بعل باسماء المدن، مثل: بعل بك (بعلبك) غير أنّ موطنه الأصلي هو في جبل صفن أي جبل الأقرع في سورية، وهو مقرّه المُقدّس، هذا ما تضمنته ملحمة بعل: "**في وسط جبلي المُقدّس، الجبل الإلهي في المكان المُقدّس**" [٤٧].

ويتبيَّن من النصوص المسمارية، والشواهد التاريخية، بما يدعم ما ذهبنا إليه من تماثل معتقدات تقديس الجبل عند العرب قبل الإسلام والشرق الأدنى القديم، ولا سيما اقتران الآلهة بالجبال، مما اكسبها تلك القُدسيّة.

تمظهر الآلِهَةِ بهيأة حَجَر

عَبَّدَ العربي قبل الإسلام قسم اً من آلهته بهيأة حجارة، فكانت هيأة اللات عِنْدَ عرب الحجاز صخرة، وأنَّ عمرو بن لُحي قال للناس: "إنَّ ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة" [٤٨]. بمعنى أنَّ الرجل الَّذِي كان عِنْدَ الصخرة لم يمت، ولكن دخل فيها أو أنَّ روح ميت حلَّت فيها، فلا يستبعد أن يشير هذا الرأي إلى ما يسمى بـ (الفتيشزم fetichism). ويعنُون بها عِبادة الأرواح التي يزعم المتعبدون لها أنَّها حالة في تلك الأحجار، ولاسيَّما الأحجار الغريبة التي لم تصقلها الأيدي، وهي من العبادات البدائيَّة موازنةً بعبادة الصُور والتَّماثِيل والأصنام[٤٩] .

اختلفت الروايات في اسم الرجل الَّذِي يلت عليها، ثم مات وبعدها عبدوه، ففي رواية لم تسمهِ جاء فيها: كان رجل في الجَاهِلِيّة على صخرة بالطائف له غنم، فكان يسلو من سِلها – السمن – ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً [٥٠]،ويطعم من يمر به من النَّاس فلما مات عبدوه [٥١]. بينما ذكره (ابن الكلبي) على أن هذا الرجل كان يهودياً [٥٢].وفي رواية (ابن جريح) يُسمّيه عامر بن الضرب العدواني، وفي رواية رجل من ثقيف اسمه صرمة بن غنم [٥٣]،وفي أُخرَى أنّه عمرو بن لُحِي الخُزاعي [٥٤]. وحرَّف بعض الشراح هذا الاسم وظنَّ أنَّه ربيعة بن حارثة، وهذا قول آخر في اسم اللات والأصح ليس كذلك، وإنّما ربيعة بن حارثة اسم لحي فيما قيل، وأنَّ اللات غير عمرو بن لُحِي[٥٥]. ويرجح (ابن حجر) ما جاء في رواية (ابن

عباس): إنَّ اللات رجل لما مات قال لهم عمرو بن لُحي أنّه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، فعبدوها وبنو عليها بيتاً؛ وسبب ترجيحه هذه الرواية، لأنَّ عمرو بن لُحِي هو في (زعمهم) مَنْ حمل العرب على عبادة الأصنام [٥٦] .

وجاء وصف اللات عِنْدَ (ابن كثير) على أنَّها: "صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء مُعظم عِنْدَ أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها، يفتخرون بها على من عداهم من إحياء العرب بعد قُريش" [٥٧] . وكان في أسفل الصخرة فتحة تسمى (غبغب) يوضع فيه كُلّ الكنوز الثمينة التي تتعلق بالإله من ثياب غالية وحلي ومباخر وذهب وفضة [٥٨] .

ومن مظاهر تأليه الحجارة هو تمظهر الإنسان في حجر وتأليهه، بدلالة مسخ إساف ونائلة اللذين مارسا الجنس المُقَدَّس في المكان المُقَدَّس (الكعبة) وتحولا إلى إلهين للخصب، كان الطائف بالكعبة يتمسح بهما، وهذا المسخ الَّذِي ورد في مضمون (أُسْطُورَة إساف ونائلة) الَّذِي بموجبه تحول الإنسان إلى حجر إلهي تطالعنا به الروايات الأَخبَارِيَّة التي لخَّصنا فحواها بالآتي: كان إساف ونائلة رجلاً وامرأة دخلا الكعبة فقبلها فيها فمسخا حجرين، فأخرجا من جوف الكعبة وعليهما ثيابهما, فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر عِنْدَ زمزم. ويقال: وضعا جميعًا في موضع زمزم, وكان ينحر عِنْدَهما, وكان أهل الجَاهِلِيّة يمرون بإساف ونائلة ويتمسحون بهما, وكان الطائف إذا طاف بالبيت يبدأ بإساف فيستلمه, فإذا فرغ من طَوَافه ختم بنائلة فاستلمها وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة، وكانت ثيابهما كُلّما بليت أخلفوا لهما ثيابًا, وكانوا يذبحون عِنْدَهما, ولم تكن تدنو منهما امرأة طامث[٥٩]. وهذا تأكيد لمعنى القداسة وما تقتضيه الطهارة .

ويرى أحد الباحثين إن تقديس إساف ونائلة ودخولهما ضمن الحج الجاهلي من استلام أساف أولاً ونائلة آخراً، ومن الذبح عِنْدَهما، وحلق الشعر، ونزع الثياب وطرحها لُقاً بينهما لا يمسها أحد ولا ينتفع بها. أن مختلف القرائن المذكورة ولا سيّما ما يُوضع عليها من الثياب تُخلَّف كُلّما بُليت، ليدل على معانٍ رَمَزِيَّة قد يصعب القطع بها، فربّما كانا تجسيداً لمعتقدات أُسطُوريَّة، ولشعائر تتصل بعبادة الحجارة، وأنَّهما يُمَثَّلان طوراً، الرَّاجِح أنَّه متأخر؛ لأن تشَكَّل الحِجَارَة في صُورة إنسان مرحلة لا بدَّ أنَّها كانت بعد تقديس الأنصاب [٦٠].

وكان من ضمن الآلهة التي تمظهرت على هيأة حجارة هو الإله ذو الخَلَصَة، إذ كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، وكان بتباله بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة وسدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظمها وتهدى لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، وكان يستقسم عِنْدَها بالأزلام[٦١].

وعُبِّد الصَّنم سعد، بهيأة حجارة طويلة، وكان لمالك وملكان ابن ي كنانة بساحل جدة [٦٢]، وكان بهيأة صخرة طويلة، فأقبل رجل منهم بلَبِلٍ له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه، نفرت منه وكان يهراق

عليه الدماء، فذهبت في كُلّ وجه وتفرقت عليه وأسف، فتناول حجرا فرماه به، وقال: لا بارك الله فيك إلها أنفرت عليّ إبلي ثم خرج في طلبها حَتَّى جمعها وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا فشتتنا سعد. فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يُدعى لِغَيٍّ ولا رشد (٦٣)

وكان نصب الإلهة ذو شرى بهيأة حجر أسود مربع يتلقى دم الأضاحي، وكان الإله الرَّئيس لدى الأنباط، وقد أخذه الصفويين عنهم، وهو إلهاً شَّمسياً، معبده في البتراء، ويظهر من خلال نقش نبطي أنَّه كان له حرم في دومة الجندل(٦٤). وكان ذو أربعة أضلاع يبلغ طوله أربعة أقدام وعرضه قدمين، وكان دماء ضحاياه تصب عليه أو أمامه، وكانت تحته قاعدة ذهبية كما كان يتألف معبده كُلّه بالذهب وبالهبات التي كانت تنذر إليه(٦٥). وقد ورد اسمه في الكتابات النبطية (دو شرا) و(دشر)، وعرف في المصادر الإسلامية بـ (ذو شرى)، وهو منسوب في الأرجح إلى جبال الشراة أو السراة أو سعيد (٦٦)، وفي بطرا عُثِرَ على اسم حرم الإله ذى شرى، وقصد به الأرض المُقَدَّسة المحيطة ببيت ذلك الصَّنم، والمعبد كُلّه، لأنَّه محرّم ومقدس وكتب عليه (حرم ذى الشرى الإله ربنا)، وكان معبده من المعابد الشهيرة، وعرف بـ (بيت الربّ) و (ذو الشرى) في الكتابات النبطية، وكان في موضع مرتفع على صخرة عالية، يحج إليه النَّاس من مواضع بعيدة (٦٧). كان ذو الشرى يُقرن بالحجر أو الصخر المرتفع الشاهق، وكان يُجَسَّدْ على شكل كتلة صخر أو عمود، أما اللات فكانت تشير إلى الماء والينابيع، ولذلك تبدو الصورة مذهلة تقدمها طبيعة البتراء أيام المطر، صخور شاهقة ذات ارتفاع أُسطُورِيّ والماء ينزل منها، وكأنَّهُ عناق سماوي مُقدّس بين ذي الشرى واللات حَتَّى غدت كُلّ صخرة وكأنها جزء من جَسد (ذو الشرى) (٦٨).

وربّما ثَمَّةَ تماثل بين الإله هبل والحجر الأسود والإله كُبل، إذ صحّ الحجر الأسود البركاني الموجود بكثرة في الحجاز، فهو يُشابه الإلهة كوبال أو كوبل، الَّذِي جاء به الرومان من آسيا الصغرى أي من الأناضول في القرن الثاني قبل الميلاد إلى روما على شكل حجر أسود، وكُبل حجارة عتيقة جداً في الأناضول، وقد انتقلت إلى العالم السوري في عهود قديمة، وكان هناك تأثير كبير من هذا العالم على جزيرة العرب(٦٩). فتتماهى تسمية هُبل مع كُبل، والسؤال هل أنَّ هُبلاً هو تحريف لكلمة كُبل؟ وهل الحجر الأسود يُمَثَّل كُبل؟، ونسي ذكرها، فلم تبقَ إلّا تسمية هُبل(٧٠).

وارتبطت عبادة العُزى في الأنباط بالأماكن العالية، وهي من الآلهة المؤنثة الرَّئِيسَة في معتقداتهم الدِّينيَّة، وكان من رموزها الأسد(٧١)، ووصفت من قبل (ياقوت الحموي) على أنَّها صنم منصوب على ساحل البحر على هيأة تمثال منحوت من الحجارة(٧٢).

ومن الآلهة التي ارتبطت بقداسة الجبل عِنْدَ عرب الجنوب إذ سمّوا إلهاً من آلهتهم بِاِسْمِ الضَّهْر، وقد ورد اسمه في نصوص المسند ظهرن، وفي لغة العرب الضهر أعلى الجبل، والبقعة من الجبل يخالف لونها سائر لونه(٧٣).

وتضيف الروايات بما يُعَضّد ارتباط الإله بتقديس الجبال، فقد عَبَّدَت ثمود إله عُرف بـ (طنف)، وظيفته الخصب في الأدعية الموجهة إليه، والاسم يعني كُلّ ما هو بارز أو الجزء البارز في جبل (٧٤). وكذلك هناك صنم عُرف بـ (الفَلْسُ)، وهو أنف أحمر في وسط جبلهم الَّذِي يقال له أجأ أسود كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعترون عِنْدَه عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا آمن عِنْدَه، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له، ولم تخفر حويته وكانت سدنته بنو بولان، وبولان هو الَّذِي بدأ بعبادته ،فكان آخر من سدنه(٧٥).

ولَعَلَّ عبادة الفَلس والضّهر توضح أنَّ النتوءات الجبلية الغريبة كانت محل تقديس عِنْدَ العرب القدماء، فالفلس كان أنفاً أحمر وسط جبل أجا، وكان من أشهر العبادات عِنْدَ العرب، والضّهر عِنْدَ العرب كذلك بقعة يختلف لونها عن لون سائر الجبل(٧٦).

ومن الآلهة التي ارتبطت بالجبل هو (إله هجبل) (الإه هاجبل) (إله الج بل)، الَّذِي عبده عرب الصفا، وتسمية تدل على أنَّ عَبَّدَته كانوا من سكان جبل أو أرض مرتفعة، ولهذا نعتوا إلههم بـ (إله الجبل)، ويقابل الإله المسمى (الأجبل) وهو كناية عن الشَّمس، وكان يُعبد في حِمص فإن لفظة الاجبل تعني إله الجبل، وقد رمز إليه بـ (حجر الأسود)، وكانت عبادة الحجر الأسود معروفة عِنْدَ الجاهليين إذ كان أهل مكة يقدسون الحجر الأسود في مكة ويتقربون اليه(٧٧). وكذلك الإله قيس الَّذِي يعتقد أنَّ هذا الإله إله الجبل، وقد أثبت أنّه إله الأدوميين (٧٨). وكانت الإلهة مناة أو مناتو واسمها مشتق من المنية ، فهي الوجه الَّذِي يُمَثَّل العالم السفلي، وهي تقابل أريشكيجال السومرية أو البابلية، وقد مثلها العرب بالحجر الأسود الَّذِي كان يعظم عِنْدَهم، وكان هذا الحجر يُمَثَّل الطور السلبي من الإلهة الأم (٧٩).

وفي سياق تمظهر الإله بحجر، فقد جَسَّدْ عرب الجنوب أحد آلهتهم بحجارة بيضاء، وهو الجلسد اسم صنم كان بحضرموت، تعبده كندة وحضرموت، وكان سدنته بني شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن مرتع وهو كندة، ثم أهل بيت منهم يقال لهم بنو علاق، وكان الَّذِي يسدنه منهم يسمى الأخزر بن ثابت، وكان للجسد حمى ترعاه سوامه وغنمه، وكانت هوافي الغنم إذا رعت حمى الجلسد حرمت على أربّابها، وكانوا يكلمون منه، وكان كجثة الرجل العظيم، وهو من صخرة بيضاء لها كرأس أسود، وإذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان (٨٠).

وبذلك اكتسب الحجر المُقَدَّس قدسيته من تجلي الإله فيه بحيث إن كُلّ من يلمسه يتواصل مع الإله تواصلاً مباشراً[٨١]. ويتضح ممّا تقدم أنَّ عدداً من الأصنام التي تَعَبد لها العرب كانت حجارة ليست على هيأة إنسان أو حيوان أي من غير صورة محددة، فاللّات كانت صخرة مربعة، والعُزَّى بهيأة حجر أبيض، وكانت مَنَاة صخرة تُراق عليها الدماء، أما ذو الخَلَصة فهي مروة بيضاء منقوشة عليها كهيأة التاج.

ولَعَلَّ تقديس الحجر متأتي من كون الربّ يسكن الحجر أو يَتَجَلّى فيه لعِبادهِ، وهذا هو المفهوم الَّذِي يبدو قد ارتبط بالحجارة المُقَدَّسة في كُلّ مكان، فحين كان العربي يريق الدم على نصب كان من المفترض أنَّ قربانه يصل إلى الإله مباشرة، والصورة نفسها فإنَّ المسح باليد على الحجر المُقَدَّس لم يكن يختلف عن لمس رداء أو لحية شخص في حالة خشوع، إذن فالحجر المُقَدَّس هنا هو مذبح وصنم في آن[٨٢].

وكان من مظاهر تقديس الحجارة في سلع / البتراء، إنَّ المذابح محفورة في الصّخر وقعره من الأرض؛ لضرورة شرب الأرض لدماء الذبائح، كما أنَّ النبط كانوا يضرّجون حجارة المذبح بالدماء، وهذا ما يُعبر عنه اليونان (betyle)، بكلمة مأخوذة عن العبريَّةِ كما هو واضح (بيت إيل)، أي مسكن الإله[٨٣].

ونَستشفُّ من النقش المرموز بـ (JS641) الَّذِي وجد في معبد للإله بعل سمين في ددان، الَّذِي عبده الحيانيون، بما يعزز تقديس نوع من الحجارة التي ترتبط بالإله جاء فيه: (بعل سمين أحرم هقرت (الصخرة) من مه ترقه مرأت)، أي أنَّ الإله يحرم ارتقاء هذه الصخرة التي ربّما توصل إليه [٨٤]. وبذلك كان على البشر في كُلّ تعاملاتهم مع الماديات أن يراعوا حرمة الامتيازات الإلَهِيَّة وهو ما كان يُمْكِن لهم أن يفعلوه عن طريق معرفة ومراعاة قواعد الحرمة التي تفرض قيوداً في تعاملاتهم مع الآلهة وكُلّ الماديات التي تنسب للآلهة بصورة أو بأُخرَى على الرَّغْم من أنَّ الحرمة أحياناً لا تقتصر بالضرورة على ما هو مُلك للإله من دون البشر[٨٥]. إذ عادةً ما يشمل الحمى على موضع محدد يقدم الأضحية فيه إلى الإله مباشرة عن طريق إراقته على الحجارة المُقَدَّسة أو يشتمل على شجرة مقدسة تعلق عليها العطايا [٨٦]. ويُمْكِن القول إنَّ الحمى المقام للإنسان المُقَدَّس وتحديده بالأنصاب (الحجارة المُقَدَّسة) يتماثل مع حمى الآلهة، وأنَّ قواعد الحرمة في الحالتين يُنظم كيفية تعامل البشر مع الحرم المُقَدَّس بحيث لا يتم التجاوز عليه، إذ يُعدّ ذلك تجاوزاً على الإله أو الشخص المُقَدَّس.

وتَتَجَلَّى قُدسِيَّة الحجر أيضاً عِنْدَ الأنباط فيما يُسمى بعبادتهم بـ (المعلّيات High Places) التي هي مساحة منحوتة في الجبل مكشوفة وأرضيتها واسعة وشكلها شبه بيضوي، يتوسطها المذبح حيث تقدم الأضاحي، مثل معلية الرقيم، ويصعد للمعلية بدرجات حجريَّة، ويُعدّ الصعود أحد الطقُوس المُقَدَّسة، وفي الثلث الأول من الطريق الصاعد إلى المعلية هناك تمثال كبير لأسد الَّذِي هو رمز العزى [٨٧]. فالمعلّيات هي

أماكن العبادة العالية ولا سيّما المعابد الموجودة على رؤوس الجبال (جبل أثلب، المناجاة، غنيم، خربة التنور، خربة الضريح، معبد بعل سمين)، والمعلّيات هي الشكل الجبلي لهياكل العراء الكنعانية[٨٨].

تقديس الأَنْصَاب وَأَكْوَام الحِجَارَةِ

مارس الإنسان العربي قبل الإسلام عبادة الأنصاب وأكوام الحجارة المصطنعة التي يختارها بصورة عشوائية ويقيمها بيده، اعتقاداً أنّه يصنع إلهاً جديداً إذ أقام حجراً مُقدساً؛ بل كان يؤمن بأنّ الإله يَتَجَلّى في الحجر أو يسكنه أو يهبه الحياة، لذا فإنَّ الحجر كان لأغراض عمليّة يُعدّ تجسيداً للإله ويعامل كما لو كان هو الإله نفسه. إلا أنَّ هناك فارقاً كبير اً في عبادة الإله في تجسّيده الطبيعي في شجرة أو صخرة متميزة وإغرائه بالنزول والتجسّد في بناء يقيمه له اتباعه. ومن الناحية الميتافيزيقية إنَّ عبادة النصب والحجر التي يصنعها الإنسان بيده تبدو شيئاً أكثر بدائية من عبادة حياة طبيعية متمثلة في عين ماء أو شجرة[٨٩].

وكان التقرب إلى الأحجار في بيوت العبادة شائعاً عِنْدَ العرب قبل الإسلام. وقد ذكر أنّ في (غيمان) موضع عبادة وفيه (حجر قحمم) (حجر قاحمم) (حجر قاحم)، وهو يشبه الحجر الأسود الَّذِي كان يتقرب إليه الجاهليون في مكّة. والحجر الَّذِي كان في كعبة نجران، وفي (تسلال)، وفي مواضع أُخرَى عديدة. وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تُبين للذين نقبوا فيها أنَّ لها صلة بعبادة الأحجار، و أن تلك المقابر أُقيمت عِنْدَ موضع مُقدّس لوجود حجر مقدس فيه[٩٠].

ولا تستبعد الروايات الأَخبَارِيَّة ذات البعد الميثولوجي من أنَّ للأحجار المُقَدَّسة قدرة عقابية للبشر حينما تحاكي الآلهة في القدرة ذاتها ، هذا ما نلمسه في أحدى الروايات التي تظهر تصورات العربي عن الحجارة المُقَدَّسة جاء فيها :عن ابن أبي نجيح عن أبيه، "أنَّ ناسًا كانوا في الجَاهِلِيّة حلفوا عِنْدَ البيت على قسامة[٩١]، وكانوا حلفوا على باطل، ثم خرجوا حَتَّى إذا كانوا ببعض الطريق نزلوا تحت صخرة فبينا هم قائلون إذ أقبلت الصخرة عليهم، فخرجوا من تحتها يشتدون فانفلقت بخمسين فلقة فأدركت كُلّ رجل منها فلقة فقتلته وكانوا من بني عامر بن لؤي، قال الزنجي: فكان ذلك الَّذِي أقل عددهم، فورث حويطب بن عبد العزى عامة رباعهم"[٩٢].

وتطلعنا رواية عن حويطب بن عبد العزى تحمل بعداً ميثولوجياً عن تصوّر العرب في قدرة الحجارة العقابية جاء فيها: "كان في الجَاهِلِيّة في الكعبة حلق أمثال لجم البهم، يدخل الخائف فيها يده فلا يريبه أحد، فلما كان ذات يوم ذهب خائف ليدخل يده فيها، فاجتذ به رجل فَشُلّت فيها يمينه فأدركه الإسلام وإنَّه لأشل"[٩٣]. وهناك رواية أُخرَى تذهب في السّيَاق ذاته عن قدرة الحجارة المُقَدَّسة العِقَابِيّة يرويها الشخص نفسه، حويطب بن عبد العزى قال: "كنا جلوسًا بفناء الكعبة في الجَاهِلِيّة، فجاءت امرأة إلى البيت تعوذ به من زوجها، فجاء زوجها فمد يده إليها فيبست يده، فلقد رأيته في الإسلام بعد وإنَّه لأشل"[٩٤].

وذُكر من الحجر المُقَدَّس الجثوة: الحجارة المجموعة والجسد ، والجذوة والوسط، وجثا الحرم بالضم والكسر: ما اجتمع فيه من الحجارة التي توضع على حدود الحرم أو الأنصاب تذبح عليها الذبائح [٩٥]. وهي الحِجارَةِ التي تُوضَعُ على حُدُودِ الحَرَم. أَو هي (الأَنْصابُ) التي كانت (تُذْبَحُ عليها الذَّبائِحُ)، واحِدَتُها جَثْوَةٌ وجُثْوَةٌ [٩٦].[٩٧]. والْقَبْرُ جُثْوَةٌ، وما ارْتَفَعَ من الأَرْض، نحو ارْتفاعِ الْقَبْر جُثْوَة. وقال أبو عمر: والجُثْوَةُ التُّرابُ الْمجْتَمِع [٩٨].والجثوة التي هي في الأصل ارتفاع القبر. والجثوة: التراب المجتمع[٩٩].

ويُمْكِن عدّ الغَبْغَب من الحجارة المُقَدَّسة أيضاً، وهي يراق عليها القرابين التي تُ ذبح للآلهة، أو تُقدَّم له، ولقدسيّته كان موضع محج فضلاً عن أنّه كان خزائن الآلهة فيحتفظ ما يُقدم لها من نذور. ومن الأنصاب التي ورد ذكرها عِنْدَ الاخباريين هي النصب التي بين يدي مَنَاف، وهو صنم مستقبل ركن الحجر الأسود، وله غبغبان أسودان من حجارة تذبح بينهما الذبائح. وكذلك جاء ذكر الغبغب للعُزى، ومنحر ينحرون فيه هداياهم يقال له الغُبغب الَّذِي بـ (منى) وهو جبيل، وقيل كان لمعتب بن قيس بيت يقال له: غبغب، كانوا يحجون إليه كما يحجون إلى البيت الشريف، وقيل الغبغب هو الموضع الَّذِي كان ينحر فيه للاّت والعُزى بالطائف، وخزانة ما يُهدى إليهما بها[١٠٠]. إذن الغبغب في ديانة جزيرة العرب لم يكن مجرد كنز، إذ يقال إنَّ الضحية كانت تُقدم فيه، وإنَّ دم القربان كان يتدفق في الحفرة[١٠١]. ومن غربلة هذه الرواية يتضح أنَّ الغبغب حجر مقدس يُعد نصباً كان يذبح عليه في الجَاهِلِيّة. وقيل: مذبح اللآت والعزى. وقيل: الغبغب المنحر بمنى. والرَّاجِح هو حفرة في الحجر المُقَدَّس يتدفق إليها دماء الأضاحي المُقربة للآلهة.

وثَمَّةَ اقتران بين النصب والغبغب وكلاهما يُكمل الآخر، فالغبغب مع ملاحظة الاسم من الفعل (غبغب)، الَّذِي يُمَثِّل حركة الدماء وسيلانها، وتدفقها وتضاربها، فإذن، تكون الأنصاب ملازمة لموقع المعبود، وهي مقامة بين يديه، فالأنصاب كانت متفرقة على المذابح، ولم تكن متجاورة، أي أنَّ المنحر لا بدَّ أن يكون كبيراً حَتَّى يستوعب عدداً من الأنصاب، ويفسح مجالاً للقرابين، التي هي قديمة، تعود إلى ازمان موغلة في القدم [١٠٢]،بدلالة قول الشاعر المهلهل بن ربيعة:

كَلا وَأَنصَابٍ لَنَا عَادِيَّةٍ لَنَا ثَدْ قُطّعَتْ تَقْطِيعَا[١٠٣]

ويُفهم من قول المُهلهل أنَّ تلك الأنصاب كانت أحجاراً ذات أحجام مختلفة، وربّما كانت تُجمع من أماكن بعيدة، ثُم تُقطَّع بحسب ما يرغب فيها من يريد نصبها وعبادتها [١٠٤].

وتطلعنا الروايات عن مقدّس من الحجر هو النصب، فقد توسعت كتب شروحات الحديث الشريف في إيضاح مفهومه، إذ ذكر أنَّها ما نصب فعُبد من دون الله [١٠٥] . وفي وصف آخر إنَّها حجارة كانوا ينصبونها ويذبحون عِنْدَها فيصب عليها دماء الذبائح [١٠٦].وتزيد إحدى الروايات على هذا الوصف بالقول: إنَّها أحجار منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها تعظيماً لها بذلك، ويتقربون به إليها [١٠٧]. ويتطابق

وصف النصب بالحجارة عند (ابن الأثير) إلا أنه يُعدها صنم بقوله: النصب حجر كانوا ينصبونه في الجاهلية ، ويتخذونه صنماً فيعبدونه، والجمع: أنصاب، وقيل : هو حجر كانوا ينصبونه ، ويذبحون عليه فيحمر بالدم [١٠٨]. ويذهب (ابن حجر) في وصف الأنصاب بالقول نفسه إلا انه يستبعد صفة العبادة عنها ، بقوله : إنَّها حجارة ليست بأصنام ولا معبودة وإنما هي من آلات الجزر التي يذبح عليها ، لأن النصب في الأصل حجر كبير ، ويستدرك أنها تكون عندهم من جملة الأصنام فيذبحون له وعلى اسمه ومنها ما لا يعبد بل يكون من آلات الذبح فيذبح الذابح عليه لا للصنم [١٠٩]. ويطالعنا (العيني) في مفهومه للأنصاب بما يختلف عما تقدم إذ انه لا يُعدُها من الأصنام ، وإنَّما هي حجارة ، وكانت ثلاثمائة وستين حجراً مجموعة عند الكعبة كانوا يذبحون عندها لآلهتهم ، ويعلل عدم عدها من الأصنام ، لأنها لم تكن صوراً مصورة وتماثيل [١١٠]. ويجمع (النووي) في مفهومه للأنصاب: إنَّها الصنم والحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده فيحمر بالدم[١١١].

وقد وردت في كتب الحديث مفردة النصب منها ما جاء في روايةٍ عن ابن عَبَّاسٍ "النُّصُبُ: أَنْصَابٌ يَذْبَحُونَ عليها "[١١٢]. والنصب: "أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للأصنام، قال (الخطابي): كان النبي (ﷺ) لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام"[١١٣] .

ويرى (سميث)، أنَّ الأنصاب البدائية في جزيرة العرب هي كومة من الحجارة تذبح بجوارها الأضحية فيسيل دمها على الحجر أو عِنْدَ قاعدته، وشعيرة الدم هذه هي جوهر القربان، والحجارة المُقَدَّسة التي ورد ذكرها عِنْدَ هيرودوت تسمى انصاب ومفردها (نصب)، واسم (نحرى) أي ملطخ بالدم في اشارة إلى الشعيرة التي مرّ ذُكرها[١١٤] .

ويتماثل النصب عند العرب قبل الإسلام مع دكة القرابين (دكة المذبح) في المعابد العراقية القديمة، التي يُذبح عندها حال تقديم القرابين للإله، إذ يرى (طه باقر) أن ما يُميز المعبد في العراق القديم هو الحجرة المُقدسة أو الهيكل التي تُعرف بوجود دكة المذبح في صدرها، وهو موضع تمثال الإله حيث يجري عنده تقديم القرابين[١١٥].

وعلى الرغم من أنَّ الأنصاب كانت ثابتة قائمة بين يدي الإله، إلا أنَّهم كانوا أيضاً يضعون هذه الأنصاب حول أحواض المياه، وتسمى هذه: (النصائب)، كما كانوا يضعونها فوق رؤوس القُور، أي المرتفعات، ليستدل بها، وتسمى هذه (التناصيب)، ولا بد أنَّهم كانوا إذا مروا بها قدموا لها القرابين، وربّما كانت بالقرب منها مُجسمات لآلهتهم [١١٦].

والأنصاب التي هي (بيت إيل) في الأنباط تُدعى (نصب)، وهي حجارة منصوبة يكون ارتفاعها ضعف عرضها، ومن أشكالها ما يكون مستطيل أو محدب، وغير ذلك. وهي ترمز للإله، وعادة ما تكون من

دون أية ملامح وجهيّة عليها، وهذا من خصائص الفن النبطي الَّذِي لا يصور الآلهة بهيأة آدمية، وهذه الأنصاب عُثِرَ عليها في(سد المعجن) الوادي الصغير الَّذِي يقع شمال الرقيم، وفي الحجر ووادي رم. ومن الأنصاب ما يكون مزدوجاً أي يرمز لإلهين في الغالب دوشرا والعزى، ومنها ما هو ثلاثي، وهو ما يشكل مشكلة في معرفة الإله الثالث(١١٧).

ويتماثل هذا المعتقد في الانصاب مع معتقدات مصر القديمة، ففي مدينة (هليوبوليس) ثمة عمود أو نُصُبّ مُقدَّس يُسمى (بون) اشتق منه الاسم المصري لها (ايونو)، والذي عُرف باسم (أون) في التوراة بعد ذلك، ويوجد في هذه المدينة أيضاً حجر مُقدس هو الـ (بنبن) على شكل مسلة، ربّما هو رمزاً للشمس المُشرقة، وهناك نصب آخر هو (جد) كان رمزاً للإله (أوزيريس) (١١٨).

وعلى الرَّغْم من أنَّ الأنصاب كانت ثابتة فوق المنحر لثقلها، فإنَّ هناك أنصاباً أُخرَى محمولة، تكون أخف وأصغر حجماً، ينقلها المتعبدون معهم إلى أماكن عبادتهم البعيدة(١١٩)، بدلالة قول أحدهم:

أسُوقُ بُدنِي مُحقِباً أنْصَبِي هَلْ لِيَ مِنْ قَوْمِيَ مِنْ أرْبَابِ(١٢٠)

وكان وجود الأنصاب في موقع القبيلة ضرورياً، فإلى جانب أنه يتطلب وجود الإله، فإنَّ أصحابها كانوا يتفاءلون بوجودها بينهم، فهي التي تمنحهم النصر والقدرة، فكفار قُريش، لم يتهيؤوا للحرب، إلا بعد أن قدَّموا الولاء للأنصاب (١٢١) ، بدلالة قول عبد الله بن الزبعرى:

وَاذْكُرْ بَلاَءَ مَعَاشِرٍ وَشْكُرْهُمُ سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الأَنصَابِ
أَنْصابِ مَكَّةَ عَامِدِينَ لِيَثْرِبٍ فِي ذِي غَيَاطِلَ جَحْفَلٍ جَبْجَابِ(١٢٢)

ونبقى في الأنصاب وارتباطاتها بمُقدّسات أُخرَى من الحجارة تَمَثَّلت بـ (الجمار)، التي هي كثبان صغيرة في أمكنة الأنصاب من الحصى ارتفعت شيئاً فشيئاً بالرمي، والرمي هو وضع أحجار في مكان مقدّس احتراماً وإجلالاً للآلهة الأولية الكوسمية وللأَنْصاب. وهو يدخل في الثقافة الأنثربولوجية للعرب، أي إنّه عمل برّ، ولا علاقة له بالعنف في الرمي الجاري اليوم لاعتقاد المسلمين أنّهم يضربون الشيطان بالحصى، وفي آخر المطاف وفي مِنى، يقع نحر الأنعام، والنحر نجده في كُلّ الأديان القديمة بلا استثناء(١٢٣)؛ لذا فإنَّ كُلّ حرم تحميّه حُرمات صارمة، وكان لا بدَّ من تمييّز موقعه وحدوده، ولّمّا كانت الأماكن المُقَدَّسة عامة هي المناطق التي تسكنها القوى الإلَهِيَّة فإنَّ حرمة أو موضع عبادته من دون غيره؛ لأنَّه بقعة يكون الإله حاضراً فيها باستمرار متجَسَّدْاً في رمز مرئي ما(١٢٤) .

وثَمَّةَ ما له صلة بالأنصاب التي تفصل بين عالمي المُقَدَّس والعاديّ ، هي الجمرة في معاناها القديم التي تُعرف بالحجر لتحديد حدّ المكان المُقدس، فهي تشير من الخارج لإشارة ترهيبية، ومن الداخل إلى

منطقة مُقدّسة لا يتضح اشكالها، فهي تفصل الحرم، أي المُلكيَّة المحظورة أو المُقَدَّسة عن مكان آخر معادٍ له. وأنّ شعائر الرَّجم قبل الإسلام كانت تمارس في (مِنى)، ولها صلة بفعل الرَّحيل عن حرم اماكن الحج المُقَدَّسة، وأن رمي الجمرات وما ينجم عنه من تكوين جمرات بين اكوام الحصى، كان جزءاً من طقس عبور الحدُّ الَّذِي يفصل بين عالمين متميزين شعائرياً [١٢٥].

ويبدو أنَّ الحجر المُقَدَّس كان أكثر من مجرد مذبح، والمذبح والنُّصُب جنباً إلى جنب في الحرم الواحد، المذبح جزءاً من عمليات التقرب، والنُّصُب رمزاً محسوساً أو تجسيد الإله، يتطور بمرور الوقت، ويتم نحته بسبل شتَّى إلى أن يتحول إلى تمثال أو صنم حجريّ ذي ملامح بشرية بالصورة نفسها التي كانت ال شّجرة المُقَدَّسة تتطور بها إلى صورة خشبيَّة [١٢٦].

ولقد زخرت الروايات الأَخبَارِيَّة في تصوير معتقدات العرب بالصخور إلى الحد أنَّهم وضعوا النبوءات على لسانها من اعتقادٍ سائد أنَّ الإله يمتثل بها، فالإله هو من يتكلم على لسان الصخرة ، ولا يخفى أنَّها روايات موضوعة للنبوءة بالدعوة الإسلامية إلا أنَّها تعطي انطباعاً عن العقلية العَرَبِيَّة قبل الإسلام في تقديس الصخرة على أنّ الإله تجَسَّدْ بها، وتجلّى هذا المضمون فيما ذُكر عن الصَّنم الجلسد بالقول: بعد "أن ذبح له رجل من بني الأمري بن مهرة ذبحا، إذ سمعنا فيه كهمهمة الرعد، فأصغينا، فإذا قائل يقول: شعار أهل عدم إنه قضاء حتم إن بطش سهم فقد فاز سهم، فقلنا ربّنا وضاح وضاح، فأعاد الصوت وهو يقول ناء نجم العراق، يا أخزر بن علاق، هل أحسست جمعا عما وعددا جما يهوي من يمن وشام إلى ذات الآجام، نور أظل، وظلام أفل، ومُلك انتقل من محل إلى محل، ثم سكت فلم ندر ما هو، فقلنا هذا أمر كائن، فلما كان في العام المقبل وقد راث علينا ما كنا نسمع من كلام الصَّنم، وساءت ظنَّوننا ، وقربنا ولطخنا بدمه، وكذلك كنا نفعل، فإذا الصوت قد عاد علينا فتباشرنا، وقلنا عمَّ صباحاً ربّنا لا مصد عنك ولا محيد، تشاجرت الشؤون وساءت الظَّنون، فالعياذ من غضبك والإياب إلى صفحك، فإذا النداء من الصَّنم، يقول: قلبت البنات وعزاها واللات وعلياها ومناة منعت الأفق فلا مصعد، وحرست فلا مقعد، وأبهمت فلا متلدد، وكان قد ناجم نجم، وهاجم هجم، وصامت زجم، وقابل رجم، وداع نطق، وحق بسق، وباطل زهق"[١٢٧].

ويبدو أن عبادة الحجارة سبقت تجسيد الآلهة على هيأة إنسان أو حيوان ونعضد رأينا هذا بما ذهب إليه (سمث) بقوله: إنَّ عبادة الحجارة والنُّصُب الحجري البدائي لم يكن على ما يبدو محاولة لجعل الصَّنم صوّرة[١٢٨].

وصفوة القول في مفهوم النُّصُب أن حضوره في المعتقدات العَرَبِيَّة قبل الإسلام ليس فقط على شكل بيت إيل كما في الأنباط، وإنّما في تحديد حمى الآلهة، وأيضاً في تعليم القبور، وفي رمي الجمرات بمنى.

وفي سياق تقديس الحجارة وَضَّع العرب على قبور ساداتهم الأنصاب (كومة من الحجارة)، وذلك لقُدسيّتها، وأريق عليها دماء الاضاحي كما يراق على نصب الآلهة، فقد كان (ربيعة بن مكدم) يُعقر على قبره في الجَاهِلِيّة وبالغوا في ذلك حَتَّى قالوا لم يُعقر على قبر أحد غيره [١٢٩]،بدلالة قول الشاعر في الجَاهِلِيّة حسان بن ثابت في قبر ربيعة بن مكدم:

نَفَرَت قَلُوصِي مِنْ حجارةِ حَرَّةٍ نُصِبت عَلَى طَلْقِ اليَدَينِ وَهُوبِ[١٣٠]

وتدل لفظة (بيت) التي تحمل قُدسِيَّة على القبر أيضاً، فالبيت عِنْدَ الجاهليين حجراً مرفوعاً، أو نصباً، أو شاهداً، أو قُبة، وهي من مترادفات البيت القائمة في دائرة الحجارة، أو حرم فيه معنى ديني يتعلق بتكريم الموتى، ومن هذا النوع الغَرِيَّان في ظاهر الحيرة، وكُلّ قبر معروف مشهور، على هذا الشكل يصبح حرماً، ومن ثم مذبحاً، أو مكان للتضحية[١٣١].

وارتقوا بقبور ساداتهم إلى حرم الإله، فكانوا يحلفون عِنْدَها، وذلك ما فعلته بنو لام . ـ من قبيلة طي .ـ عِنْدَما ألهت وقَدّست قبر سيّدُها (الحارث بن لأم) إلى الحدّ الَّذِي كان يُحلف به، وهذا ما سجله الشاعر بشر بن أبي خازم:

جعلتم قبر حارثة بن لأم الاهاً تحْلفونَ به فجوُرا[١٣٢]

ويتماثل هنا إراقة الدماء على الأنصاب مع اتخاذ القبر هيأة معبد، فوضعوا عليه الأنصاب، كما هو الحال في بيت الإله المعبود، فيُعقر على الأنصاب المقامة على القبر، الَّذِي تجمعت فيه الحجارة منضودة في شكل غبغب، فالقبر تحول إلى بيت مُقدّس، تمارس حوله كُلّ طقُوس العبادة الوَثَنيَّة، فهم يحلفون به ، كما يحلفون بآلهتهم[١٣٣].

وفكرة القبر، تشبه الهرم المصغر، وتبدو فكرة قديمة، حَتَّى سمّوها الرجمة التي هي حجارة مجموعة كأنها قبور عاد، وتظهر مرتفعة كالمنار. ومن قداسة هذه القبور أنَّهم كانوا يطوفون بها، كما يُطاف بيت المعبود، بدلالة قول الأعشى:

تَعُود عَلَيهِمْ وَتُمِضيهُمُ كَمَا طَافَ بِالرَّجْمَةِ المُرْتَجِمْ [١٣٤]

أمّا رمي الحجارة على قبور موتاهم، فقد أخذت طابعاً دينياً مُقدّساً، لأنَّ وضع (رمي) الجمر فوق حجارة الكومة، لا يرمى إلى إهانة صاحب الأثر، بل يرى في نفسه مشاركاً في إحياء تلك الذكرى التي يُخلدها الأثر، فهو أن فاتته الزهرات في البادية، فلا أقل من أن يضع ما يقع تحت يده من حطب أو حجارة، وهكذا

تزداد الكومة فتعلو شيئاً فشيئاً، فإذن وضع الحجارة على قبر الميت ليس المقصود اهانته أو رجمه ، وإنَّما تكريماً للميت(١٣٥).

وجعلوا لقبور ساداتهم الحمى فوضعوا الأنصاب لتحديد مساحة الحرم كما هو الحال في حمى الآلهة، فكان يستجير بها الخائف وطالب الأمان (١٣٦). وهذا ما فعلته بنو عامر في قبر سيدهم وشاعرهم وفارسهم عامر بن الطفيل، إذ نصبت عليه أنصاباً ميلاً في ميل حمى على قبره، لا تدخله ماشية، ولا تنتشر فيه راعية ولا ترعى ولا يسلكه راكب ولا ماشٍ (١٣٧). وكان رجل من بني عامر يقال له (جبار بن سلمى) غائباً، فلما قدم قال: ما هذه الأنصاب؟ قالوا: نصبنا حِمى لقبر عامر بن الطفيل، فقال ضيقتم على (أبي علي) (١٣٨)، وكانت كنيته.

وفي سياق تقديس قبور سادات القبائل، لم يكتفوا بوضع الأنصاب، فهذا قبر حاتم الطائي جاء وصفه في رواية للصامتي روى فيها مشاهداته للقبر نقلها أبو عبيدة معمر بن المثنى، وكأنّهم وضعوا إلى جوار قبره أنصاب بهيأة آلهة من الإناث يُمَثّلْنَ إلهات الموت، يُنحّن عليه: "فكانت عن يمين قبره أربع جوار من حجارة وعن يساره أربع جوار من حجارة كُلهن صواحب شعر منثور محتجرات على قبره كالنائحات، فهُنّ بالنهار كما وصفنا، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه، ونحن في منازلنا نسمع ذلك إلى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر سكتنَّ وهدأنَّ، وربّما مرّ المارّ فيراهُنَّ فيفتتن بهنّ ويميل إليهُنّ عجباً، فإذا دنا منهنّ وجدهنّ أحجاراً"(١٣٩).

وأن مُعْتَقَدِ أحاطت قبريَّ حاتم الطائي، وعامر بن الطفيل بدائرة من الحجارة المركوزة أو الأنصاب، مُشيرة إلى المارة بصفة القبر المنيعة أي صفة (الحِمى) أو (الحَرَم)، ويضحون بالذبائح على أكثر الأنصاب القبورية تضحيةً(١٤٠).

وصفوة القول في قُدسِيَّة الحجارة الموضوعة على قبور ساداتهم وكهانهم، يبدو أنَّها اتخذت طابع القُدسِيَّة من قُدسِيَّة صاحب القبر نفسه، ولكن هذه القُدسِيَّة احتفظت بها حَتَّى غدت توازي قُدسِيَّة هؤلاء الرجال، كما هو الحال في الحجارة المُؤلهة التي يُعتقد أن الإله حلّ بها، فليس بالمستغرب أن تنسج عنها الحكايات الأسطوريَّة المبالغة، وتنصب أحجار الحِمى المُقَدَّس حول عدد منها إلى الحد الَّذِي ارتقوا بها إلى مزارات الآلهة تعظيماً وتقديساً.

الخاتمة

بعد استعراض قُدسِيَّة الحجارة وتأليهها عِنْدَ العرب قبل الإسلام، يُمْكِن أن نخلُص الآتي:

1. قدَّسوا الحجر الأسود؛ لاعتقادهم أنَّه منزل من السَّماء.

2 قدَّسوا عدداً من الجبال، هي: جبل أبي قبيس، وجبل ثبير، وجبل قزح، وجبل قاف الأسطُوريُّ، ووضعوا الروايات ذات البعد الميثولوجي من أجل الارتقاء اكثر بقدسيتها.

3 كان تقديسهم للحجارة مرحلة بدائيَّة سابقة على تشكّل الآلهة بهيأة إنسانيَّة، أو حيوانيَّة. أو عبادة قوى الطبيعة.

4 لم يعبدوا الحجارة لذاتها وإنّما اعتقدوا أنَّ فيها روح إلهيَّة كامنة.

5 تمظهرت عدد من الآلهة بهيأة حجارة، وهي: اللات، والعُزى، وإساف ونائلة، وذي الخلصة، وسعد، وذو شرى، وطنف، والفلس، وقيس، والجلسد.

6 قدَّسوا أنواع أُخرَى من الحجارة : الأنصاب، الغبغب، كومة الحجارة الموضوعة على قبور سادات القبائل، وكهنتهم، وابطالهم. وكذلك الحجارة التي تحدد أماكن الحمى سواء أكانت حمى للآلهة أم حمى شَخْصِيّ.

الهوامش والمصادر:

(١) أبو الوليد محمد الأزرقي (ت 223هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح ملحسن، دار الأندلس للنشر، (بيروت، 1996م)،ج1، ص 39.

(٢) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج1، ص39.

(٣) الحسن بن يسار البصري أبو سعيد (ت 110 هـ)، فضائل مكة والسكن فيها، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة الفلاح – الكويت – 1400 هـ ، ج 1، ص 30.

(٤)محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري (ت 230هـ) الطبقات الكبرى ، دار صادر – بيروت،ج1، ص35.

(٥) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي (ت 292 هـ) ، تاريخ اليعقوبي، دار صادر – بيروت، ج1 ، ص 6.

(٦) نقلاً عن : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (دار العلم للملاين، بيروت، مكتبة النهضة ، بغداد ، 1972 م). ، ج 6، ص437.

(٧) هشام جعيط، هشام جعيط، في السيرة النبوية –2– تاريخ الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة، بيروت،2007م، ص 96.

(٨) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 436– ص437.

(٩) هشام جعيط، في السيرة النبوية –2– تاريخ الدعوة المحمدية في مكة، ص104.

(١٠) جواد علي، المفصل، ج 6، ص437.

(١١)جورج كندر، معجم آلهة العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، 2013،، ص91.

(١٢) الأزرقي ، أخبار مكة ج 2 ، ص 175.

(١٣) أخبار عبيد بن شريه ، ص356– ص 357.

(١٤) محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله (ت 204هـ)، الأم ،(دار المعرفة – بيروت – 1393 هـ) ط2، ج 2، ص 212.

(١٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 90.

(١٦) أحمد الربيعي، قس بن ساعدة الإيادي حياته خطبه شعره، منشورات مكتبة الجمل،2010، ص40- ص41.

(١٧) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج 1 ، ص 32.

(١٨) الأزرقي ،أخبار مكة، ج 2 ، ص 267.

(١٩) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت 2004م ، ج 1 ، ص 207.

(٢٠) الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس، ج4، ص212، مادة:(قبس).

(٢١) محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي أبو عبد الله (ت 275هـ) ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، تحقيق : عبد الملك عبد الله دهيش، (دار خضر، بيروت ،1414 هـ)، ط2 ، ج 1، ص 86.

(٢٢) جواد علي، المفصل، ج6، ص408

(٢٣) جواد علي، المفصل، ج6، ص408

(٢٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج 1، ص 94.

(٢٥) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت 711 هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت ، ج 1 ، ص 23.

(٢٦) جواد علي، المفصل، ج6،ص 406.

(٢٧) الأزرقي، أخبار مكة، ج 1، ص 189. والحِلة: هم تميم بن مر، وقيس عيلان، وقضاعة. والحُمس: المتشددون في دينهم وهم قُريش وخزاعة وكنانة ومن ولدتهم قُريش.

(٢٨) فان زايل, المؤآبيون, ترجمة خيري ياسين، (عمان،1990م), ص 75 – ص 76.

(٢٩) كندر، معجم، ص 196.

(٣٠) هشام جعيط ، في السيرة النبوية، تاريخ الدعوة المحمدية في مكة،ج2، ص 110.

(٣١) هشام جعيط، في السيرة النبوية ،ج2، ص 110.

(٣٢) ياقوت الحموي(ت 626 هـ) ، معجم البلدان، دار الفكر (بيروت د.ت)، ج 4 ص 298.

(٣٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2004م ، ج 14، ص 246.

(٣٤) جواد علي، المفصل، ج6، ص 405.

(٣٥) هتون أجود الفاسي ، الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة من منتصف القرن السادس ق.م وحتى القرن الثاني الميلادي ، ص239 .

(٣٦) منير عبد الجليل العريقي ، المعبودات المحلية في الديانة اليمنية القديمة، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، ع 5، يناير،2004م ، ص 489

(٣٧) هتون ، الحياة الاجتماعية ، ص238- ص239.

(٣٨) هتون ، الحياة الاجتماعية ، ص241- ص242 .

(٣٩) صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، (بغداد، 1971م)، ص65 .

(٤٠) مريم عمران موسى، الفكر الديني عند السومريين في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب، 1996م)، ص88 .

(٤١) نائل حنون ، ملحمة كلكامش، (دمشق، 2006م)، اللوح الخامس، ص 141 .

(٤٢) نائل حنون، حينما في العُلى قصة الخليقة البابلية، (دمشق، 2006م)، ص 161 .

(٤٣) كريمر، السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي، (الكويت، 1973م)، 242.

(٤٤)مريم عمران موسى، الفكر الديني عند السومريين، ص99 .

(٤٥) نائل حنون، مدن قديمة ومواقع أثرية دراسة في الجغرافية التاريخية للعراق الشمالي خلال العصور الآشورية، (دمشق، 2009م)، ص296.

(٤٦) سفر الخروج، 3: 1-6 .

(٤٧) رؤوف سبهاني، تاريخ الأديان القديم، دار سلوني، (بيروت، 2011م)، ص52 .

(٤٨) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج1، ص 126 .

(٤٩) جواد علي ، المفصل ، ج 6، ص 232.

(٥٠) الحيس : خليط الاقط بالتمر يعجن بالخبز ، ينظر : عبد الرحمن الخليل الفراهيدي (ت 175هـ) العين ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، (بيروت د. ت) ج5 ، ص 194 .

(٥١) ابن حجر ، فتح الباري ، ج8، ص 471 .

(٥٢) هشام أبو المنذر بن محمد ابن السائب الكلبي (ت 204هـ) ،الأصنام ، تحقيق أحمد زكي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، (القاهرة ، 1924م) ، ص 16.

(٥٣) أبو عبد محمد القرطبي(ت 671هـ)، تفسير القرطبي، دار الشعب ، (القاهرة د.ت) ، ج 17، ص 100.

(٥٤) القرطبي، تفسير، ج17، ص100 . وتفصيل ذلك عند الازرقي : أنَّ عمرو بن لحي اتخذ العزى بنخلة فكانوا إذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة لم يحلوا حَتَّى يأتوا العزى فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون عندها يوما وكانت لخزاعة وكانت قُريش وبنو كنانة كلها يعظم العُزى مع خزاعة وجميع مضر وكان سدنتها الَّذِين يحجبونها بنوا شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، ينظر: الازرقي، أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، ج1، ص126.

(٥٥) ابن حجر ، فتح الباري ، ج 8، ص471 .

(٥٦) ابن حجر ، فتح الباري ، ج 8، ص 471 .

(٥٧)عماد الدين ابن كثير (ت 774هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي ، دار المعرفة ، (بيروت ، 1992م) ج4، ص 323.

(٥٨)رنيه ديسو ، العرب في سوريا، ترجمة عبد الحميد الدوخلي، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص 112.

(٥٩) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج1، ص120.

(٦٠)محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي،بيروت،1994، ص 245.

(٦١) ابن الكلبي، الأصنام، ص 34- ص 35.

(٦٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص 36.

(٦٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص 37.

(٦٤) كندر، معجم، ص 113.

(٦٥) الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص61 .

(٦٦) الحوت ، في طريق الميثولوجيا، ص 59.

(٦٧) كندر، معجم، ص 114.

(٦٨) خزعل الماجدي، الأنباط التاريخ –المثولوجيا– الفنون، دار النايا، دار محاكاة، دمشق، 2012م، ص53– ص54.

(٦٩) هشام جعيط، في السيرة النبوية ،ج2، ص 101.

(٧٠) هشام جعيط، في السيرة النبوية ،ج2، ص 102.

(٧١) ندى عبد الرؤوف، الحياة الدينية عند الأنباط، ص100.

(٧٢) معجم البلدان ج5، ص204.

(٧٣) لسان العرب ، ج4 ، ص494 .

(٧٤) كندر ، معجم ، ص158–159 .

(٧٥) ابن الكلبي، الأصنام ، ص 59.

(٧٦) كندر ، معجم ، ص155 .

(٧٧) جواد علي، المفصل، ج3 ، ص152 .

(٧٨) هتون أجود، الحياة الاجتماعية ، ص225 .

(٧٩) خزعل الماجدي، الأنباط ، ص50.

(٨٠) ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (ت 626هـ) ، معجم البلدان ، دار الفكر، بيروت، ج2،ص151.

(٨١) سميث ، محاضرات، ص210 .

(٨٢) سميث ، محاضرات، ص210 .

(٨٣) هشام جعيط، في السيرة النبوية ،ج2، ص 98.

(٨٤) هتون اجود الفاسي، الحياة الاجتماعية ، ص212 .

(٨٥) سميث ، محاضرات، ص158 .

(٨٦) سميث ، محاضرات، ص177– ص178 .

(٨٧) هتون أجود الفاسي، الحياة الاجتماعية، ص 243.

(٨٨) خزعل الماجدي، الأنباط ، ص77.

(٨٩) روبتسن سميث، محاضرات في ديانة الساميين ، ترجمة عبد الوهاب علوب، مطابع الاهرام، (مصر، 1997م)، ص121.

(٩٠) جواد علي، المفصل، ج 6، ص437.

(٩١) القسامة: هم جماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون، ويمين القسامة منسوبة إليهم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص 481.

(٩٢) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج2، ص24.

(٩٣) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج1، ص167.

(٩٤) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج2، ص24.

(٩٥) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817هـ) ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة – بيروت، ج1، ص 1638.

(٩٦) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت 1205هـ) ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين، دار الهداية ، ج37، ص322.

(٩٧) الزبيدي، تاج العروس ، ج37، ص322.

[٩٨] أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، داراإحياء التراث العربي، بيروت، 2001، ج 11، ص 118 .

[٩٩] لسان العرب، ج 14، ص 133.

[١٠٠] معجم البلدان، ج 4، ص 185.

[١٠١] سميث ، محاضرات، ص204 .

[١٠٢] فضل بن عمار العماري، الدم المُقدّس عند العرب، مكتبة التوبة ، الرياض، 2004، ص27.

[١٠٣] فؤاد أكرم البستاني، المهلل، (المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1939)، ص14.

[١٠٤] عبد الغني زيتوني، الوثنية في الأدب الجاهلي، (دمشق، 1987م)، ص 116.

[١٠٥] عبد الغني زيتوني، الوَثَنِيَّة في الأدب الجاهلي، ص 116.

[١٠٦] ابن حجر العسقلاني (ت852هـ)، فتح الباري على صحيح البخاري، ط 2، (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان) ،ج11،ص 208.

[١٠٧] الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر (ت 538هـ/ 1143م) الفايق في غريب الحديث، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ)،ج2،ص73.

[١٠٨]أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري ابن الاثير (ت 606 هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر، خرج أحاديثه أبو عبد الرحمة بن محمد بن عويطة،(دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م ،ج5،ص60.

[١٠٩] ينظر : فتح الباري،ج7،ص109.

[١١٠] بدر الدين محمود بن احمد العيني(ت 855هـ)، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري (دار إحياء التراث العربي، بيروت) ، ،ج21،ص113.

[١١١] أبو زكريا النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ،ط2، 1392هـ،ج16،ص28.

[١١٢] محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر ، تحقيق مصطفى ديبا البغا،ط 3، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت، 1987 ج5 ، ص198.

[١١٣] ابن حجر ، فتح الباري ، ج7 ، ص 143.

[١١٤] سميث ، محاضرات، ص206– ص207 .

[١١٥] طه باقر، معابد العراق القديم، مجلة سومر، 1947، ص20 .

[١١٦] فضل بن عمار العماري، الدم المُقَدَّس عند العرب، ص27.

[١١٧] هتون أجود الفاسي، ص 244– ص 245.

[١١٨] ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ترجمة أحمد قدري، دار الشروق، (القاهرة، 1996م)، ص 25.

[١١٩] فضل بن عمار العماري، الدم المُقَدَّس عند العرب، ص33.

[١٢٠] ابن الكلبي ، الأصنام، ص 42.

[١٢١] فضل بن عمار العماري، الدم المُقَدَّس عند العرب، ص33.

[١٢٢] شعر عبد الله بن الزبعرى، تحقيق يحيى الجبوري، (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م)، ص 29. ذو غياطل: جيش كثير الأصوات، جحفل جلباب: كثير كثيف.

[١٢٣] هشام جعيط، في السيرة النبوية ،ج2، ص 110.

(١٢٤) سميث ، محاضرات، ص177 .

(١٢٥) العرب والغصن الذهبي ، ص112 .

(١٢٦) سميث ، محاضرات، ص209 .

(١٢٧) معجم البلدان ج 2 ص 152.

(١٢٨) سميث، محاضرات في ديانة الساميين، ص212.

(١٢٩) أبو بكر احمد بن الحسن بن علي بن موسى البيهقي (ت 458هـ/ 1065م) ، سنن البيهقي الكبرى، (دار الفكر، بيروت) ،ج3،ص333؛ابن حجر، فتح الباري،ج2،ص437.

(١٣٠) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، (دار الكتب، القاهرة، 1974م)، ج1، ص410.

(١٣١) هنري لامنس، الحجارة المؤلّهة عند العرب الجاهليين، مجلة المشرق، سنة38، ع1، كانون الثاني– شباط، ص20.

(١٣٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص136.

(١٣٣) فضل بن عمار العماري، الدم المُقَدَّس عند العرب، ص172، ص 173.

(١٣٤) ديوان الأعشى، تحقيق محمد حسين، (المطبعة النموذجية، مصر،1950م)، ص39.

(١٣٥) هنري لامنس، الحجارة المؤلهة، ص28– ص29.

(١٣٦) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974،ص91.

(١٣٧) سعد عبود سمار، دراسات في المعتقدات الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام ، دار تموز، 2014م ، ص90.

(١٣٨) الأصبهاني ، الأغاني، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، ج17، ص66.

(١٣٩) الأصفهاني، الأغاني،ج17، ص67.

(١٤٠) هنري لامنس، الحجارة المؤلهة، ص22.